اليسار العربي :
ملابسات النقد والنقد الذاتي

د. الطاهر لبيب
باحث اجتماعي (تونس)

يجمعنا، اليوم، حول كريم مروّة، كتابُه عن نهضة جديدة لليسار العربي، كتَبه كاتب «اشتراكي مخضرم، من موقعه المستقِل راهنا»، على حد تعبيره. في الكتاب معرفةٌ وتجربة ومشروع تغيير، باسم اليسار، وفيه، فوق كل هذا، هدوءٌ مستفِزّ بعدم استفزازه: فأنت لا تصل إلى رأي قد تخالفه فيه إلاّ وقد هدّأتْ من رأيك مفاهيمُ العقلانيّة والموضوعيّة والنسبيّة وما جرى مجراها... في الكتاب، إذاً، حِنكة وحكمة. ومهما يكن، فمزيّة الكتاب الأولى هي في سعة ما يتّسع له النقاش. وممّا يتسع له، ضِمناً، إذ تحاشى الخوضَ فيه، قديمُ اليسار الذي ساد نقدهُ ونقده الذاتي، باسم الجديد أو من دون جديد. ملاحظاتي هي، إذاً، في اتجاه ماضٍ، من الظلم أن يتخلّى عنه حاضرٌ ليس هو، بالضرورة، أفضلَ منه.

إن كان لليسار أن يعرَّف فالتجاوز من أكثر الكلمات شمولاً وكثافة. لها مُلحقاتها، طبعاً: أن تكون الحركة تقدّماً وأن لا تحمل وعياً زائفاً، وأن تكون غير ذلك مما أَلِفت قولَه نُصوصُ اليسار. وإذا ذهبنا بالاستعارة بعيداً، قُلنا، على وجه الكناية: إذا كان في الواقع القائم «جنّةٌ» فوجهة اليسار جنّةٌ أفضل. وللجنّة الفضلى أسماءٌ كثيرة وسبلٌ متوازية أو متقاطعة، أكثرها جذباً وسراباً تسمَّى إيتيوبيا. ويبدو – وهذه مفارقة – أن سبلاً ومسارب كثيرة امّحتْ، وبقيت الإيتوبيا يترجرج سرابها، صوراً وحنيناً. السبب، في ما أرى، أن للإيتوبيا، وللسراب أيضاً، وجهاً تراجيديّاً لم

تُمحَ ملامحُه، منذ بداية الأساطير. من هذه الملامح ما يوحي بـ «البطولة الإشكاليّة»، كما رآها لوكاتش: بطولةِ من يصرّ على مواجهة المستحيل، وهو يعلم أنه مستحيل. لنختم التعريف، إذاً، بأن التجاوز قد يكون نحو المستحيل: مستحيلِ اللحظة، إذ لا مستحيلَ، تاريخيّاً، في المطلق.

اليسار العربي الذي كان، هذا الذي نعرّفه في الماضي حديثُ عهدٍ، ولحظته قصيرة. قد يعود به بعض العرب إلى أوائل أجدادهم، ولكنّ المواربة، مهما كانت حيلتُها، يصاحبها شؤم اليسار في حقول الدلالات القديمة: إنه شؤم الخروج من وعلى، شؤم الفتنة، وقبل ذلك شؤم من أُوتيَ الكتابَ بشِماله. شِمال الجزيرة نفسُه بحرٌ وهلاك.

معلومٌ ما تناثر وتباعد، عبر العصور، من بؤر التنوير والإحتجاج، ولكنّ اليسار العربي، في اصطلاح اليوم، لا امتداد له في التاريخ. قد تكون إرهاصاته في ما تداخل بين النهضة والإستعمار، ولكنّ الدفع كان بعد النكبة والقوّةَ بعد النكسة أو الهزيمة: ٦٧ منعطفٌ حاسم. استخلاصٌ أوّل: نشأ اليسار العربي من أزمة، وأزمة النشوء هذه تحوّلت سريعاً، خلال عقدين على الأكثر، إلى أزمة وجود. هذا هو عُمر اليسار العربي الذي يُنتقد ويُنتقد ذاتياً.

قد يتهوّر البعض في المقارنة بيساراتٍ أخرى. لنتّخذ مثلاً يسار فرنسا: وراءه «الأنوار»، وهو ابن الثورة الفرنسية (التي أكلت منه ما أكلت). بدأ توبوغرافيّاً: عنى اليسارُ، أوّلَ ما عنى، جلوسَ الليبراليين أو «الحرّيين» يسار المجلس، في حين جلس المحافظون جهة اليمين. وكان لا بد من مرور قرن من الزّمن، تقريباً، قبل أن تتحوّل المقابلةُ إلى يمين ويسار، أي أن يكتسب اليسار معناه المتداول اليوم. هذا المدى الزمني أتاح للفكر أن ينبني وأن يتراكم، وللحركات أن تمتد وأن تتصارع،

ولمستويات الواقع أن تتمفصل.

لا مقارنة إذاً: فلا عمر اليسار العربي امتدّ إلى توالي مراحله وتراكم تجاربه ولا الزمن الاجتماعي العربي اتّسع لنضج حركته. استخلاصٌ ثانٍ قد يكون ضدّ التيار الغالب: ما أنجزه اليسار العربي، في حدود العمر الذي افتكّه من قبضة الزمن العربي كان أرقى ما وصل إليه الفكر والفكر السياسي العربي في تاريخه الحديث والمعاصر. هذا الإنجاز الكثيف، المضغوطُ في ضيق العمر والزمن ليس أقلّ قيمةً ولا أثراً مما أنجز آخرون، في ظروف أخرى.

لهذا يبدو غريباً تنكيلُ بعض اليسار العربي بماضيهم، ويبدو أغربَ منه اعتذارُهم عن وعي سابق: وعيٍ مرحلةٍ بنى البعض فيها البدائلَ وناضلوا واضطُهدوا وقُتلوا من أجلها. ممَّ يعتذرون؟ من واقعٍ لم يتحمّلهم؟ من جدليّةٍ زيّفها أن اليمين كان أجهزةً لا فكر لها يجادله اليسار فيه؟ يقول بعض اليسار: الناقدِ ذاتَه إنه لم يفهم الواقع الموضوعي: هذا صحيح، ولكن هل ساد في مرحلته، في الكون كلّه، غيرُ ما كان له من آليات الفهم والتحليل والتفسير؟

ما حدود النقد الذاتي إن لم تكن حدودَ المرحلة؟ أن تبنيَ جديداً أو أن تعيد بناءً أو أن تستخلص الدروس، كما يقال، فهذا من صلب التجاوز، من تعريف اليسار، لكنّه ليس فرصةً للإعتذار عن لحظةٍ مؤسِّسةٍ كان فيها الجهد والإصرار وكان لها، ككلّ لحظةٍ، أخطاؤها. اختصاراً، ليس المطلوب تطهيرَ لحظةٍ ماضية وإنما المطلوب الدفاع عن استثنائيّتها وعما بذل جيلها من أجلها.

للنقد الذاتي، إذا، حدود مرحلته، وله أيضاً حدود شرعيته: هناك من تغيّرت أفكاره ومواقعه، متحرّكاً داخل اليسار، وهذا ملمح حياةٍ وتطوّر، ولكنّ كثيراً من قدامى اليسار نقدوا يسارَهم من مواقع لم تعد لها صلة باليسار ولا بتخومه. النقد،

في هذه الحالة، تبريرٌ للإنزياح ولتغيير الموقع. وهو لذلك لا يُقنع، وقلّما يرتقي إلى ما ينتقده من فكر وتجربة.

ماذا بقي من اليسار العربي؟ لا ندري، على وجه الدقّة. ما نعلمه أن قلّة متحركة أو ثابتة حيث كانت، لا يزال التجاوزُ حاملَ فكرها وحاملَ بدائلها ومواجهاتها. ما نعلمه أيضاً أن أغلب من ساروا باليسار أو سار بهم غيّروا مساراتهم إلى ضفاف أخرى. توزّعوا في فضاءات أوسعُها ثلاثة: السياسةُ التي لها قدرة الاحتواء بالإغراء، استيعاب الخبرةِ مسلوبةً من فكرها، والدينُ الذي عرف هجرةً إليه، هجرةً بلا عودة، طلباً للغفران، ثم الإعلامُ الذي يجيد صنعَ مثقفين عابرين في ثقافة عابرة.

الحيرة هنا والآن، لا في أمرِ ما مضى. لِيجبْ قدامى اليسار عن سؤال أوّل: أين كانوا وأين أصبحوا؟ وعن أسئلة أخرى، منها: هل، حقّاً، أخذتهم حيويّةُ الفكر إلى حيث هم أم أخذتهم رياح أخرى؟ في الإجابة، مهما كانت وكانت ذرائعُها، ما يجعل من نقد اليسار لحاضره ضرورةً أخلاقية. الماضي أنجز وخاب ظنُّه ومضى.

نعم، لا نعرف، على وجه الدقّة، ما بقي من اليسار العربي. هذا إذا نُظر إليه، كما هي العادة، من منظور الفكر السياسي والتجربة السياسيّة. أما إذا نُظر إليه من منظور فكري أو معرفي فما ظهر منه، في لحظته، وما بقي منه، واسع التأثير إلى اليوم. بعضه لم يكن مسبوقاً، في إبداعه، وبعضه لم يأت، بعدَه، ما يرتقي إليه. لِنتذكّر، من الستينيات وأوائل السبعينيات، نصوصاً مؤسِّسةً في الشعر والرواية، وأعمالاً كبرى في المسرح والسينما، وفي الموسيقى والفن التشكيلي، وكذلك في البحث والتحليل. إنها، إلى اليوم، معالمُ كبرى، وهي ما كان لها أن تكون لولا حركة اليسار وما ارتبط بها من طلائعيّة عالميّة وعربيّة. لا يعني هذا أن كلَّ من أبدع في مرحلة اليسار كان

منه، ولكنه يعني أن تلك المرحلة كانت محفّزةً ليسارها ولغيره.

مثقفو تلك المرحلة، شئنا أم أبينا، هم كبار مثقفي العرب في تاريخ الفكر العربي المعاصر: لقد أبدعوا في صياغة أحلامٍ لم يستفق واقعُ العرب لتحقيقها. لقد تراجعت المرجعيات الفكرية الكبرى وتراجعت معها الحركات التغييريّة والإحتجاجيّة، ولكنها تركت خيوطاً لها في النسيج الفكري، في التمثّلات وفي اللّغة، بعضها امتدّ إلى وريثٍ غير شرعي، إلى الخطاب الرسمي العربي.

لقد أردت ردّ اعتبارٍ إلى جيل يسهل نقدُه على مقاعد الورشة الجديدة. أما المستقبل فله مستشرفوه، ولا قدرةَ لي على المجازفة فيه.